النشـــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٧ / ٢٠٠٠
الأحد ١٣ شباط

أبينا البار مرتنيانوس

اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الرابع

الـرسـالـة (٢ كورنثوس ٦: ١٦-١٨ ؛ ٧-١)
الإنـجـيـل (متى ١٥ : ٢١- ٢٨)

+ البار مرتنيانوس

تُعيِّد الكنيسة المقدسة في الثالث عشر من شباط لتذكار القديس البار مرتنيانوس الفلسطيني، الذي كان نموذجاً للتوبة. وتُعلِّمنا سيرة حياته أن الشيطان لا يرتاح حتى يسقط الإنسان في الخطيئة، وكلما تقدم الإنسان في الحياة الروحية، ازدادت تجارب الشرير شراسة، وبنعمة الرب وحدها يستطيع الإنسان التوبة والعودة إلى الحضن الإلهي.

ولد مرتنيانوس في منتصف القرن الرابع في قيصرية فلسطين. لما بلغ الثامنة عشرة اختار الحياة النسكية وانتقل للعيش في إحدى الجبال القريبة من قيصرية، وتتلمذ على أيدي نساك هذا الجبل. ثابر على الصلوات والأصوام

والأسهار ودراسة الكتاب المقدس وعمل الفضائل، حتى انه صار نموذجاً لكافة الرهبان في حياة القداسة. أنعم الله عليه بموهبة طرد الأبالسة وصنع العجائب، فتقاطر إليه الناس من مختلف الأماكن لكي يشفوا من أمراضهم.

لم يرق للشيطان أن يكون مرتنيانوس عبداً للرب. فبعد خمسة وعشرين عاماً من حياة القداسة حاك الشيطان مكيدة ضد مرتنيانوس لكي يوقعه في الخطيئة. وتفصيل ذلك أن امرأة ساقطة، اسمها زويي، من قيصرية، سمعت بسيرة مرتنيانوس من بعض الشبان الذين تحدوها بأنها لا تستطيع الإيقاع به، فلبست ثياباً رثة وانطلقت إلى الجبل حيث منسك مرتنيانوس. وقد هطل المطر في الطريق وتبلّلت ثيابها فبدت بحال يرثى لها. أخذت تقرع على باب مرتنيانوس وتبكي وتنتحب متظاهرة بالخوف من الوحوش لأن المساء قد حلَّ. رق قلب القديس وأدخلها وأعطاها طعاماً من الخبز والثمر، ثم مضى هو إلى غرفته الداخلية حيث أمضى الليل في الصلاة.

بدلت زويي خلال الليل ثيابها الرثة بملابس مثيرة كانت جلبتها معها، ولما كان الصباح خرج مرتنيانوس من غرفته الداخلية إلى مكان وجود المرأة. أغوته المرأة فضعُفت قواه الروحية. لكنه، وقبل الارتماء في أحضانها، أراد التأكد من عدم وجود أحد في الخارج. ولما همّ بالخروج من الباب رأى رؤيا تصوّر الهاوية التي هو مزمع أن يلقي بنفسه فيها، فانصدم وارتد تائباً. جمع حطباً وأشعله، ولما صار جمراً أخذ يسير على الجمر وهو يقول: أنظر قبل أن تباشر النجاسة إن كنت قادراً على احتمال نار جهنم عقاباً. احترقت رجلاه فبكى بكاءً مراً، بسبب أوجاعه، على خطاياه.

لما شاهدت زويي هذا المشهد انطرحت عند قدمي مرتنيانوس وذرفت دموع التوبة طالبة منه الغفران. ولم تترك المنسك إلا بعد أن أرشدها إلى طريق الخلاص، وما يجب أن تفعله لتكفر عن خطاياها. ويقال إنها ذهبت إلى دير القديسة باولا في بيت لحم حيث عاشت بالنسك لمدة إثنتي عشرة سنة لحين وفاتها، ولم تذق طعاماً خلال هذه الفترة غير الخبز والماء.

بقي مرتنيانوس طريح الفراش مدة سبعة أشهر، لا يمكنه الوقوف على رجليه المحروقتين. بعدها قرر الذهاب إلى مكان منفرد لكي لا يتعرض ثانية لما أصابه سابقاً، ولكي يكفر عن ذنوبه. قصد الشاطئ وركب إحدى السفن، فأرشده صاحب السفينة إلى صخرة في وسط البحر استقر عليها وكان صاحب السفينة

يأتيه ثلاث أو أربع مرات في السنة بالخبز اليابس والماء. بقي هناك عدة سنوات يمارس أفعال التوبة الشاقة إلى أن تحرك الشيطان من جديد ليجربه، فتحطم مركب قرب الصخرة وغرق الجميع ما عدا فتاة واحدة قذفتها الريح نحو صخرة مرتنيانوس. صرخت نحوه مستغيثة، أما هو فتردد في إنقاذها مخافة أن تكون تجربة جديدة من الشيطان. لكنه عاد وأخرجها من البحر. ولكي لا يجربه الشيطان سلّمها الخبز والماء الموجودين عنده، ورمى بنفسه في البحر بعد أن رسم إشارة الصليب. أنقذه الرب ووصل سالماً إلى الشاطئ. ويُقال أن هذه الفتاة التي كانت تدعى فوتين عاشت على الصخرة طيلة حياتها. أما هو فقرر التجوال كغريب من مدينة إلى أخرى. وكان يعيش من صدقة المحسنين. وصل في تجواله إلى أثينا حيث اعتراه المرض. اهتم به أسقف المدينة إلى أن رقد بسلام حوالي العام ٤٠٠ . فبشفاعته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.

+ الإيمان

«لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» (متى ١٧:٢٠).

تحدثنا في العدد السابق عن أهمية أعمال الإنسان للدخول إلى ملكوت السموات، وضرورة تثمير الوزنات والمواهب التي يمنحها الله للإنسان. ويعلّمنا الفصل الإنجيلي الذي نقرأه هذا الأحد (متى ١٥: ٢١-٢٨) والذي يتحدث عن المرأة الكنعانية، أن «ملكوت السموات يُغصب» (متى ١١:١٢) بالإيمان أي أنك بإيمانك تقتحم الملكوت كما اقتحمت المرأة الكنعانية قلب يسوع صارخة نحوه «ارحمني يا سيد يا ابن داود» (متى ١٥:٢٢)، فسمعت منه «يا امرأة عظيم إيمانك، ليكن لك كما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة» (متى ١٥:٢٨).

حاول التلاميذ منع الكنعانية من الاقتراب من يسوع وطلبوا من يسوع أن يصرفها لأنها تصيح في أثرهم. لكنها لم تأبه، وأصرت على صراخها. قال لها يسوع إنك من نواحي صور وصيدا، إنك امرأة وثنية ولست تؤمنين بالله، وأنا مرسل إلى «خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥:٢٤) أي أنا مرسل إلى المؤمنين بالله فقط. فارتمت عند قدميه وسجدت له قائلة أعِني. أجابها مجرباً إيمانها (لا لكي يعرف هو مدى إيمانها بل ليُظهر لجميع من حوله عِظَم إيمان هذه المرأة الوثنية) «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب» (متى

٢٦:١٥)، أي لا يجوز أن ترمى النعمة أمام من ليسوا على الإيمان، الوثنيين. هنا أظهرت المرأة الكنعانية تصميماً عنيداً للوصول إلى غايتها، وأجابت يسوع بمَثَل أيضاً: «فقالت نعم يا سيد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها» (متى ٢٧:١٥). لقد كان لديها الجواب الحسن، المقبول أمام الرب، ولذلك نالت ما تريد «ليكن لكِ كما تريدين» (متى ٢٨:١٥). هذا ما نصلي من أجله في القداس الإلهي: أن نحمل «جواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب» في اليوم الأخير.

لقد رمت المرأة الكنعانية بنفسها عند قدمي يسوع وقالت له أنت وحدك معيني. حاول صرفها فلم ينجح، بل ازدادت عناداً، فكان لها ما تشاء. «يا امرأة عظيمٌ إيمانك» (متى ٢٨:١٥). إيمان هذه المرأة يشبه إيمان تلك المرأة النازفة الدم التي قالت في نفسها «إن مسست ثوبه فقط شُفيت. فالتفت يسوع وأبصرها فقال ثقي يا ابنة إيمانك قد شفاك. فشُفيت المرأة من تلك الساعة» (متى ٩: ٢٠-٢٢).

عظيم هو الإيمان، وكل شيء مستطاع به. المهم أن لا نشك. يعلّمنا الرب: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط بل إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون. وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه» (متى ٢١: ٢١و٢٢). الصلاة النابعة من قلبٍ مؤمنٍ لا يشك هي صلاة مسموعة لدى الله: كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مرقس ٢٤:١١).

لقد سجدت المرأة الكنعانية أمام يسوع. والسجدة في التقليد المسيحي تعبير صادق عن مشاعر الخضوع والاتضاع والطاعة. إنها استسلام كامل لمشيئة الوب. إنها علامة الولاء الواجبة. قد يعترف الكثيرون بوجود الله ولكن الذين يسجدون قليلون. وحده المؤمن الحقيقي يركع ويفتح قلبه لله. هكذا فعلت المرأة الكنعانية الوثنية. لقد سجدت له فيما ورفضه المؤمنون بالله، أي بنو اسرائيل. لقد استسلمت لمشيئته فدخلت إلى ملكوته.

من يقرأ الإنجيل بحسب الرسول متى يلاحظ أهمية الإيمان في خلاص الإنسان. كما يلاحظ تشديد الرسول متى على الإيمان. لقد كتب إنجيله للمسيحيين من أصل يهودي، ولليهود لكي يؤمنوا بالمسيح، وكان همه الأساسي أن يقتلع من فكرهم مقولة أنهم مخلصون لأنهم أبناء ابرهيم: «لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم

لنا ابرهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادرٌ أن يُقيم من هذه الحجارة أولاداً لابرهيم» (متى ٩:٣). لهذا نراه في بداية إنجيله يركز على إيمان الوثنيين والخطأة مقابل جحود العبرانيين «شعب الله» كما يدعون. لقد رفضه هيرودس واليهود وقبله المجوس المشرقيون الوثنيون (متى ٢). وعندما صنع يسوع العجائب اتهمه الفريسيون أنه «برئيس الشياطين يُخرج الشياطين» (متى ٣٤:٩)، أما قائد المئة فتمنى على يسوع أن يقول كلمة واحدة فيشفى غلامه، ولم يرد أن يتعب يسوع بالذهاب إلى منزله، فكان جواب يسوع: «الحق أقول لكم، لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات» (متى ٨: ١٠و١١). أي أن الغرباء سوف يحلون مكان الذين يعتبرون أنفسهم من شعب الله. إيماننا بالله فقط يقرر ما إذا كنا من أبنائه أم لا، فإن «العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله. لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به، وأما العشارون والزواني فآمنوا به. وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيراً لتؤمنوا به» (متى ٢١: ٣١و٣٢).

لما دنت ساعة يسوع ليتمجد حكم عليه رؤساء الكهنة، الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله، بالموت لأنه قال أنه ابن الله: «قد سمعتم تجديفه، ماذا ترون. فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت» (متى ٢٦: ٦٥و٦٦). أما قائد المئة الوثني فلما رأى الزلزلة خاف جداً وقال: «حقاً كان هذا ابن الله » (متى ٥٤:٢٧).

لا يكفي أن تكون مسيحياً بالهوية فقط، المهم أن تكون مسيحياً بالإيمان، بالقلب والأعمال. بعضنا ليس أفضل بكثير من معاصري يسوع وأقاربه وأبناء قبيلته. نطعن كل يوم يسوع بالظهر حين نشكّ به. قد نعترف بوجوده ولا نؤمن به أنه ابن الله وهو المخلّص. هل نرتمي عند قدميه كما فعلت المرأة الكنعانية؟ قد نعيّر الآخرين بأننا أفضل منهم. فلنسأل أنفسنا في صحوة ضمير: بماذا نحن أفضل؟ أبإيماننا واتكالنا الكلي على الله؟ سلوكنا أعمالنا دليل إيماننا القوي أو التضعيف: «من يسمع أقوالي هذه (أي يؤمن بأقوالي) ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر» (متى ٢٤:٧). الإيمان يترجَم بالأعمال والمرأة الكنعانية لم تجد أفضل من السجود ليسوع لتعبّر عن إيمانها. نسبك ومركزك لن يدخلاك إلى الملكوت، وحده إيمانك المترجَم أعمالاً يضمن لك الطريق. ومن له أذنان للسمع فليسمع.

+ تأمل

تأمل في عظمة المنزلة التي أنزلك فيها يسوع ! كنتَ تُدعى "طالب عماد" ، كنت لا تسمع من الخارج إلاّ صدى ما يقال، كنت تسمع عن الرجاء دون أن تدرك معناه، كنت تسمع عن الأسرار دون أن تفهمها. كنت تسمع الكتب المقدسة دون أن تتمكن من سبر عمقها. أنت لم تعد تسمع صوتها، من الخارج، لأن هذا الصوت يدوي فيك، لأنّ الروح الساكن فيك (رو٨: ٩-١١) يجعل من ذهنك بيتاً لله. فعندما تقرأ في الكتب المقدسة عن الأسرار ، سوف تفهم ما لم تفهمه عنها حتى الآن. ولا تظن أنك تتلقّى بذلك هديّة بسيطة: فأنت الإنسان الحقير، تتلقّى إسم الله. اسمع ما يقوله القديس بولس :"الله أمين" (١ كور ١: ٩ فيلبي ٣: ١٠)، ويقول سِفر آخر : " الله أمين وعادل" (ايو ١: ٩، تثنية ٣٢: ٤). وقد سبق لصاحب المزامير أن قال مقدّماً باسم الله (بما أنه كان محتَّما أن يتلقّى البشر تسمية إلهية): " قلت إنكم آلهة وبنو العليّ كلكم" (مز ٨١: ٦). ولكن إحذر، وأنت تسمّى أميناً، من أن تكون لك ارادة غير مؤمن. لقد دخلتَ حلبة السباق فجاهد لأنك قد لا تجد فرصة أخرى كهذه. لو كنت تعدّ العدّة لزفافك، أما كنت تتخلّى عن كل شيء للإهتمام بإعداد الوليمة؟ فكم بالحري وأنت تكرّس نفسك للعريس السماوي ! ألا يجدر بك أن تطرح كل اهتمام دنيوي للإنصراف الى ما هو روحيّ؟

لا يمكن تقبّل غسل الميلاد الثاني مرّتين أو ثلاثة، وإلاّ لجاز لنا أن نقول: ما أسأتُ تقبّله مرّة، سأُجيد تقبّله المرة الثانية. انّ ما تفقده مرة لا يمكنك استعادته، لأن " الربّ واحد ، الإيمان واحد، والمعمودية واحدة) (أفسس٤:٥: ١ كور ١٢: ٤-٦) والهراطقة وحدهم يعمَّدون ثانية، لأن عمادهم الأول لا يُحسب.

لا يطلب الله منا سوى القصد الصالح. لا تقل" كيف تمحي خطاياي ؟ أنا أقول لك : بالإرادة والإيمان. أيّ طريق أقصر من هذا ؟ ولكن أذا كانت شفتاك تقولان : "أريد" ، وقلبك يمتنع عن هذا القول، فإن الذي يفحص القلوب هو الذي يدينك. فكُفّ من اليوم عن كل عمل شرّير، ولا ينطق لسانك بكلمات لاذعة، ولا تخطىء عينك ولا يتعلّق ذهنك بالباطل.

لتسرع قدماك الى التعاليم المستمدّة من الكتب المقدسة، سواء تلك التي تسمعها أو تتلوها، فهذا عمل يؤول الى خلاصك. فكّر أن لدينا ذهباً خاماً مخلوطاً بمواد أخرى، مثل النحاس والقصدير والحديد والرصاص (حز ٢٢: ١٨)، ونحن نحاول أن نحصل على ذهب نقيّ. وهذا لا يمكن أن يتمّ إلاّ بواسطة النار. هكذا لا يمكن للنفس أن تتنقّى إلاّ بواسطة التعاليم. يُستَر وجهُك لكي يتحرّر قلبك، خوفاً من أن تزوغ عينُك فلا ينضبط قلبك.العينان

المعصّبتان لا تعوقان أذنيك عن تقبّل تعاليم الخلاص. وكما أنّ الذين ينقّون الذهب، مضطّرون الى تذكية النار بأدوات دقيقة، بحيث لا يبقى في البوتقة غير الذهب الصافي : كذلك يُثير المكلّفون " بالتقسيمات" الرعبَ بواسطة روح الرب، ويوقظون النفس المتجمدّة في الجسد كما لو كانت في بوتقة، فيهرب الخصم- الشيطان - ويبقى الخلاص ورجاء الحياة الأبدية ، وأخيراً تحصل النفس على الخلاص بعد أن تكون قد تنقّت من خطاياها. فلنبقَ في هذا الرجاء يا أخوتي ، حتى انّ إله الكون الذي يرى قصدنا الصالح، يطهّرنا من خطايانا ويهبنا رجاء الخيرات الحقّة، ويمنحنا توبة خلاصية. الله يختار، وقد وقع اختياره عليك.

القديس كيرلس الأورشليمي

(٣١٤-٣٨٧)